

مبارك التوزونيني ومقاومته للاستعمار الفرنسي في منطقة تافيلالت (١٩١٨ – ١٩١٩)

عبد المنعم احمتي

باحث في التاريخ المعاصر وأستاذ متدرب
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
مكناس - المملكة المغربية



مُلخَص

نهدف من خلال هذ المقال القيام بمحاولة بيوغرافية لشخصية مبارك التوزونيني، قائد المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي في منطقة تافيلالت بالجنوب الشرقي للمغرب. ورهائنا المعرفي هنا هو رصد وتتبع أهم المراحل والمحطات في مسار هذه الشخصية، قبل وخلال تزعمها لحركة المقاومة. وحتى نكون موضوعيين أكثر فالمعطيات التاريخية المتوفرة حول الشخصية ذاتها قليلة جدًا، وهو ما يحول دون تكوين صورة نسبية واضحة حولها، وزيادة على مشكل القلة والشح في مستوى المعلومات، نُشير إلى أنّ هناك إشكاليات تُثيرها شخصية مبارك التوزونيني، وهي ذاتها الإشكاليات التي تطرحها مختلف حركات المقاومة المغربية في علاقتها مع ثلاثي: المجتمع القبلي المحلي، المخزن، المستعمر، وهي إشكالية لا نبتغي في هذه المساهمة البسيطة النبش فيها، بقدر ما نبتغي تقديم لمحة بيوغرافية لشخصية مبارك التوزونيني، في أفق القيام بدراسة تدقيقية لها.

بيانات المقال:

مبارك التوزونيني؛ حركة المقاومة؛ تافيلالت؛ الاستعمار الفرنسي؛
تاريخ المغرب الحديث

تاريخ استلام المقال: ٠٩ مايو ٢٠١٨

تاريخ قبول النشر: ٢١ أغسطس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

DOI 10.12816/0057045

معرّف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد المنعم احمتي، "مبارك التوزونيني ومقاومته للاستعمار الفرنسي في منطقة تافيلالت (١٩١٨ - ١٩١٩)". - دورية كان التاريخية. - السنة الثانية عشرة - العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص ٨٦ - ٩٣.

مُقَدِّمَةٌ

لشخصيته^(١)، هذا ويُعتبر المهدي الناصري والمختار السوسي الاستثناء الوحيد في الإسطوغرافيا الوطنية التي لم تُغفل عن مبارك بن الحسين التوزونيني، فالأول أرخ لسيرته في كتابه "نعت الخطريس"، والثاني ترجم له في الجزء السادس عشر من كتابه المعسول^(٢). وفي هذا الإطار يأتي هذ المقال كمحاولة بيوغرافية تهدف إلى القيام بعملية تتبع تاريخية لسيرة مبارك بن الحسين التوزونيني، وذلك بالتركيز على بعض المحطات البارزة في حياته الدينية والسياسية وعلاقاته الاجتماعية مع أهالي تافيلالت،

إن الحديث عن شخصية مبارك بن الحسين التوزونيني حديثٌ يلفه الغموض، إذ بالرغم من الدور الريادي الذي لعبه في مناطق الجنوب وتافيلالت ما بين سنتي ١٩١٦-١٩١٩م، وامتداد مقاومته عبر مساحات شاسعة شملت واحات تافيلالت غريس وفركلة وتودغة والناحية الوسطي بالأطلس الكبير، ومع ذلك فالتقارير والكتابات الفرنسية لم تتعرض له إلا في إطار الاشتباكات التي حدثت بينه والجيش الفرنسي، بل وحاولت في عديد من اللحظات رسم صورة سوداء

حياته، يقول المختار السوس "سافرت طائفة من فقراء الشيخ لألغي ألي (أملن) نحو سنة ١٣٢٢هـ، فباتوا في قرية (أومسات) فصادفوا هناك مبارك هذا شاباً... كان يشتغل هناك في سبيل تحصيل القوت"^(٨)، فحادثتهُ بذلك زمرة الفقراء عن طبيعة عيشهم في الزاوية التي تعمِد إلى الزهد والتقشف والانسلاخ من ملذات الدنيا وشهواتها الزائلة فاستغرب من طريقة عيشهم التي لا تثقل كاهلهم.

إنَّ مُجالسة مبارك بن الحسين لفقراء الطريقة الألفية، وهو يكابد الأمرين بين سداد الفقر ومطرقة عمل الأرض الذي يتطلب الكدَّ والجهد، جعله يُعيد التّفكير ملياً في حياته كمزارع وحية التصوف والزهد والتقشف، فقرّر مُرافقة الفقراء في اتجاه زاوية إلبغ بسوس إيمانياً منه بأن حمل السبح أذف وطئت من "حمل القفاف والمساحي"^(٩). تتلمذ التوزونيني على يد بعض شيوخ الزاوية الدرقاوية كمُولود اليعقوبي وسعيد التتاني، وأظهر طموحاً قوياً في اقتفاء أثر شيخه مولود اليعقوبي، إذ "كان هذا ممن يُصاحبه وينحاش إليه، ويستفيد منه فوائد أذكّار وءايات... ملازمًا لإرادة شيخه يتوجّه أني صرفه"^(١٠). في هذا الطّرف أظهر التوزونيني طموحاً قوياً في سبيل تلقي العلم والمعرفة وأبان عن مُستوي عالي في حفظ بعض السور القرآنية وبعض الأذكار والأوراد فاق من خلالها فقراء الزاوية ذكاءً وفطنة^(١١)، ولم يقف عند هذا الحدّ بل دأب إلى تقليد شيوخه قلباً وقالباً من حيث الشعر الممدود الطويل، والكلام القليل واللّحية الكثيفة والثياب الرثة المرقّعة والسُّبُحُتان اللتان لا تُغادران عنقه ساكنًا كان أم متحرّكًا^(١٢). بيد أنّه في إطار تكوينه في مدرسة المتفكرين بطريقة أو بأخرى لم يكن قصده التقرب إلى الله عن طريق الذكر السليم والعبادة، بل كان باسم التصوف والتفكير يبحث عن أشياء أخرى^(١٣)، الأمر الذي كان يُغضب شيخه مولود اليعقوبي الذي كان يُعاتبه "فيقول له كلمة مأثورة عند الفقراء إلى لأن وهي (الجنّي العريان) وذلك أقبح ثلب وما كان يقولها لأحد سواه"^(١٤). على إثر هذا انتقل إلى حمى سعيد التتاني فطلب منه تعليمه بعض الأذكار والسور القرآنية ذات الأسرار القوية، "فعلمه عددًا من سبحنا الله ونعم الوكيل (وأية الكرسي) فاقبل إقبالا كلياً عليها، لا يفتّر عن ذكرها، ولا تسقط السبحة من يده"^(١٥)، وحين ذلك لم يتورّع التوزونيني في الكشف عن مقصده لزملائه الفقراء كلما أمكنه

سعيًا لفهم شخصيته وقراءة طبيعة الفترة التي عاش فيها.

أولاً: الحياة الدينية والسياسية لمبارك التوزونيني

١/١-نسبه

عرّف المختار السوسي في كتابه المعسول مبارك التوزونيني بأنه: "مبارك بن الحسين بن محمد بن أحمد بداج، وهذا الجد الملقب (بداج) هو الذي أسلم، وقد كان يهوديًا، على يد القايد بلعيد المرابطي الشهير. وهذا الفقيه قرأ على الأستاذ المشهور بكو علي اليلاني وسكن قرية توزونين حيث الأسرة كلها إلى أن توفي ١٣٤٠هـ"^(١٦)، وأضاف قائلاً "وأما مبارك فهو الناصر المشهور بوقعه في (تافيلالت)، وبه خرجت القوات الفرنسية منها بعد احتلالها لها أكثر من سنة، ويجهل كثير من الناس أصله، وكيف وقع له حتّى ثار في (تافيلالت) تلك الثورة العظيمة"^(١٧). من خلال هذا التعريف نستخلص أن مبارك التوزونيني هو حفيد محمد بن أحمد بداج، من قرية توزونين من أقاليم^(١٨)، ومنها استمد لقبه التوزونيني. وقد انحدر من وسط فقير حيث ازداد في القرية المذكورة في حوالي ١٣٠١هـ (١٨٧٣-١٨٧٤م).

هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ الكتابات الاستعمارية أعطت رواية أخرى مُغايرة لما قدّمه صاحب المعسول، إذ ربطت أصل التوزونيني بقبائل سملال، كتب جورج سيلمان: "وفي سنة ١٩١٨ ادعى طالب سوسي يدعي مبارك والد الحسين والمعروف أيضا باسم مبارك ولد شطو، أصله من ايدا وسملال في الأطلس الصغير الغربي شرق تزنييت، ادعى لدي ايت ايعزي أنّه الشريف الإدريسي امحمد افروتين، المدفون منذ زمن في أعالي وادي الرك"^(١٩). الأمر الذي عارضه عبد الله ستيتيتو، حيث اعتبر هذه "الترجمة مقصودة ومُغرّضة" نظراً لما عرفت به تلك القبائل -التي تُنسب إليها التوزونيني- من تخلي عن واجب الجهاد في سوس والضواحي^(٢٠)، وبالتالي فقد وظّف سيلمان ذلك للحطّ من قيمة التوزونيني أمام أتباعه.

٢/١-الحياة الدينية للتوزونيني

لقد قادت الظروف الاجتماعية والانحدار من وسط معوز التوزونيني للبحث عن عمل يُعيل به أسرته، فاشتغل في مجال الزراعة بمنطقة تافراوت سنة ١٩٠٥م، وفي نفس السنة حدث تغييرٌ جوهري في

غادر التوزونيني بدون تردّد أرض سُوس للبحث عن مكان صالح لتحقيق حلمه، فقصّد زاوية سيدي عمار القديمة الدرقاوية في منطقة دادس، وهناك عمل على أجرأت مشروع السياسي باستقطاب الناس إليه وجمعهم في إطار الفكر الدرقاوي، ونتيجة مجموعة من المشاكل شدّ الرحال شرقاً وهو يجرّ ذبول الهزيمة والخيبة تارة، ويدفعه طموحه تارة أخرى، فساقته الظروف إلى منطقة تُوذغة سنة ١٩١٤م^(٢٤). انتقل بعدها إلى قبيلة آيت أيعزي من آيت عطا، وهناك قضى مدة من الزمن منعزلاً بجوار ضريح أمحمد نيفرُوتين بوادي الرك^(٢٥) (جهة الغرب من تافيلالت)^(٢٦)، وفي هذه المرحلة أظهر التوزونيني النسك والانقطاع والصلاح والورع، وازداد زهداً وتقشفاً وعزلة عن الناس، بل أخذ يُكرم كل من يأوي إلى الضريح، وأحاط نفسه بنوع من لأبهة الدينية "مع كثرة صمت وحسن سمّت"^(٢٧)، ثم أخذ يُجالس بعض العطاويين ويعظهم ويرشدهم، كما لقب نفسه بـ"افروتين" ولجأ إلى التمايم والشعوذة^(٢٨)، وادعاء الكرامات والخوارق الأمر الذي جعله قَدْحًا للعديد من الناس.

إن استقرار التوزونيني بجوار ضريح الشريف الإدريسي "أمحمد نيفرُوتين"، الذي يتمتع بقدسية زائدة لدي آيت عطا، وانهماكّه في وعظ وإرشاد الناس وإظهار الورع والصلاح، بالإضافة إلى تلقيب نفسه بـ "محمد نيفرُوتين" الذي يعني بالأمازيغية الشخص الذي يُخلص الناس من الأزمات، كلّ هذا له تفسير وحد هو أنّ مبارك هذا حاول إضفاء الطابع التّجيلي والقدسي على حركته، وإظهار أنه "مهدي الوقت"^(٢٩) الذي طالما انتظره الناس. هذا وقد دأب مرافقوه على نعتيه بالمهدي المنتظر الذي جاء لإنقاذ البلاد من الاستعمار والكفر وتجديد الإسلام^(٣٠). وفي السياق ذاته يُضيف عبد الله حمودي أنّه من غير المُستبعد أن يكون مبارك التوزونيني قد اطلع على تجارب عددٍ ممن تبنوا هذا الفكر، كما أنّ مَهْدوية التوزونيني تتجاوز الانقسامات والصراعات القبلية وتجعل اللعبة الانقسامية بالية. وخير دليل على ذلك أنّ العطاويين موجودون بتواجد خصمهم اللدود المتمثل في آيت مرغاد.

موجز القول في هذا المقام أنّ تبني مبارك التوزونيني للمهدوية واعتماده على هذا الأسلوب من الدعاية، لا يمكن تفسيره إلاّ "بكونه يندرج في إطار خلق الشروط الكفيلة بإعطاء 'التوزونيني' نوعاً من

ذلك، فكان كلما باسطهم يقول "لابد أن أكون سلطاناً"، فكانوا يتضحكون ويتعجبون من مقصده "لأنّ شيخه دائماً يُعلن لهم في كلّ مجلس جلسة، وفي كلّ فرصة تسنح، أن كلّ من طلب منا غير رضي الله ومعرفة فقد ظلمنا وظلم نفسه"^(٣١).

٣/١- الحياة السياسية لمبارك بن الحسين التوزونيني (٣/١) - سياق انتقاله إلى السياسي

لم يكن قصد مبارك التوزونيني من حياة التصوف التي قضاها في أحضان زاوية إليغ لمدة تساوي العقد، التقرب إلى الله بل كان مُبتغاه دُنْيوي محض أساسه تحقيق حلم سياسي إذ كان يرنو إلى عالم الرياسة والسياسة^(٣٢). وفي ظلّ هذا المخاض الذي كان يمرّ به التوزونيني توفي الزعيم الروحي لزاوية اليغ الشيخ مولود اليعقوبي سنة ١٩١٠، الأمر الذي كان له أثر على شخصيته فكان شارح الذهن مُشتت التفكير لمدة تُقارب السنتين. وفي سنة ١٩١٢ بعد توقيع عقد الحماية الفرنسية على المغرب واندلاع مقاومة أحمد الهيبة بالجنوب المغربي، فتوافد على الهيبة العديد من تلاميذ زاوية اليغ ومنهم التوزونيني بهدف الجهاد والمقاومة^(٣٣)، وبعد إقبال وإدبار وكر وفر انُذِب أحمد الهيبة سلطاناً^(٣٤)، الأمر الذي أوضح للتوزونيني أن طريق الزعامة ليس مُستحيلاً حيث أن الهيبة شخص لا يتميز بخصائص تميزه عن غيره. بيد أنّه بعدما أجهضت مقاومة أحمد الهيبة فرّ التوزونيني رفقة أصدقائه إلى الزاوية واستمرّ حوالي أربع سنوات وهو يعيش العزلة والانزواء يتجول بين الأصقاع مرتدياً ملاءة، ومطلقاً لحيته وشعر رأسه وواضعاً فوق رأسه عمامة كبيرة^(٣٥)، كما شرع في ارتكاب سلسلة من الخروقات في حق الزاوية وظل يُفشي أسرارها بين عامة الناس أينما حلّ وارتحل، وعلى غير عادة شيوخ زاوية إليغ وسلطانها الذين كانوا يلتزمون الحياد أخذ التوزونيني يتدخل في الشؤون القبلية. كلّ هذه الأمور عرضته للطرد من الزاوية سنة ١٣٣٢ هـ^(٣٦)، لتغيب أخباره بعدما شدّ الرحال إلى قبائل الجبهة الشرقية من سُوس ولعله بذلك قد امثل لنصيحة شيخه مولود اليعقوبي الذي سمعه ذات مرّة يُعبر عن هوسه السياسي فقال له: "لا يمكن أن يستقيم لك ما تريد في بلاد سوس، وربما لا يتمّ لك ما تريد إلاّ في قبائل القبلة الجاهلة"^(٣٧)، والمقصود بقبائل القبلة قبائل آيت عطا^(٣٨).

الفرصة سانحة أمام التوزونيني للظهور بلباس الزعامة وقيادة الجهاد، فرتب عملية اغتيال هذا الأخير عن طريق تكليف أحد خُداهه بالعملية، قال المهدي الناصري: " فوعده فناه، وضمنه له الغبي نعيم الجنان عند الله، إن بادر لأمره ممتثلاً وعلى مُرادَه مُقبلاً"^(٤١)، فتوجه بعدها إلى مقر إقامة الحاكم الفرنسي فوجه له طعنات أردته قتيلاً^(٤٢)، في ٣ يونيو ١٩١٨^(٤٣)، وعلى إثر ذلك قالت إحدى الشاعرات الأمازيغيات:

نزل املوي البُطولة عن كُل ذي جُبّة
لقد اقتَحَم الأبواب إلى أن قَتَلَهُ في فراشه^(٤٤)

شكل مقتل ضابط بحجم أوستري صدمة قوية لفرنسا ولمخططاتها الإمبريالية، فجهزت العدة والعتاد واستنفرت جهودها للقيام بعمليات عسكرية في منطقة تافيلالت ضدّ المقاومين لإعادة السيطرة على المنطقة، ومن جهته قام التوزونيني باستنفار الناس للجهاد في الأسواق والأماكن الشعبية، فانضم إليه العديد من القبائل كآيت عطا وآيت مرغاد وآيت حديدو، وهي قبائل أمازيغية بالمغرب الجنوبيّ شرقيّ، كما انضم له العديد من الزعماء الدينيين المنتسبين للزاوية الدرقاوية وجعل بلفاسم النكادي قائداً لجيشه^(٤٥).

كانت أولى مواجهة بين الفرنسيين والمقاومين في ٩ غشت^(٤٦) ١٩١٨، وعرفت تلك المواجهة بمعركة البَطْحَاء نسبة للمكان الذي دارت فيه المعركة التي انتصر فيها المقاومون، إذ تمكنوا في ظرف ثلاث أيام من القضاء على فرقة عسكرية كاملة من الجنود الفرنسيين، بالإضافة إلى عشرة ضباط نافذين منهم^(٤٧)، هذا ولم يقف التوزونيني عند هذا الانتصار بل خاض معارك ومواجهات أخرى ضد الجيش الفرنسي لعل أهمها: معركة الخَضارة في العاشر من غشت عام ١٩١٨، ومعركة تِيغْمَرْت في السابع شتتير من نفس السنة، ثمّ موقعة الدار البيضاء في الثامن من أكتوبر ١٩١٨، وكذا معركة تيزيمي في السادس عشر أكتوبر ١٩١٨، وأخيراً معركة حنابوا في الثاني والعشرون من عام ١٩١٨. وبعد هذه الانتصارات انتدب التوزونيني سلطاناً للجهاد بمنطقة تافيلالت وتمت مبايعته. قال فيه الشاعر عبد الكريم السرخيني:

فتيهي دلالا يا سِجلماسة وقد
سعدت بمن أحيالك بعد موتة^(٤٨)

الغطاء الأخلاقي والديني اللذين يجدان مضمونهما من خلال مفهوم 'البركة' الشعبي التي يتوجب أن تتوفر في شخصية الزعيم والتي تؤهله لقيادة الجماهير للجهاد"^(٤٩).

بعد أن استتب له أمر سكان منطقة الرك واجتمع العطاويون حوله بدأ أفق الزعامة يتجلى له، خصوصاً بعدما بلغه خبر احتلال تافيلالت، يقول أحد ضباط الشؤون الأهلية الفرنسية "فأصبح ينادي القبائل للجهاد لطردها من تافيلالت واسترجاع بوذنيب"^(٥٠)، موازاة مع ذلك كرس التوزونيني كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد، فاقتني فرسا وربطه أمام قبة الضريح وأسرّ لكل من يأتي إليه أن الفرس مربوط لنية جهاد الكفار، وأن من علامات الإذن بالجهاد أن يُضبح الفرس مُسرّجاً ملجماً ذات يوم^(٥١)، كما حاول خلق الظروف الملائمة لقيادة الجهاد المتمثلة في إعادة توزيع الهدايا التي تتوافد عليه، على المحتاجين^(٥٢).

(٣/١) ٢- الاستعمار الفرنسي لتافيلالت ومقاومة مبارك بن الحسين

بعد الدعوات العديدة التي وجهها السلطان مولاي يوسف للمقاومين لوقف هُجامة الفرنسيين، أرسل هذا الأخير رسالة إلى عامله بتافيلالت^(٥٣) مولاي المهدي يحثه فيها على التعاون مع الناصري، ولم يكتفي السلطان بذلك بل قام بتوجيه بعثة للخليفة لتوضيح ماذا ينبغي أن يفعل^(٥٤). وفي هذا الإطار اتفق مولاي المهدي والعقيد دوري بعد سلسلة من اللقاءات، على وضع بعثة فرنسية بتافيلالت تقوم بمساعدة الخليفة السلطاني وهي مكونة من: مندوب فرنسي سام هو القبطان نويل Noël و مترجم من الدرجة الرفيعة هو القبطان أوستري Oustry ثمّ الطبيب مادلين (Madeleine). أشاد ليوطي بهذا الاقتراح غير المكلف لا بشرياً ومادياً، كم أنّ وجود هذه البعثة قد يكون تمهيداً للوجود الفرنسي في تافيلالت بشكل نهائي. قال ليوطي "تافيلالت أصبحت حقيقة بين أيدينا، بحيث نستطيع من الآن فصاعداً التأكيد على التحكم في تهدئة المنطقة الممتدة شرق ملوية حتى زيز ومن تافيلالت حتّى الحدود الجنوبية"^(٥٥)، وتطبيقاً للاتفاق توجهت البعثة الفرنسية إلى تافيلالت واستقرت بقصر تغمرت^(٥٦) في 4 دجنبر ١٩١٧^(٥٧)، وعيّن أوستري حاكماً على تافيلالت.

لقد أظهر الحاكم الفرنسي أوستري استبداداً كبيراً وزرع الهيبة بين أهالي المنطقة^(٥٨) الأمر الذي جعل

اعتمد الرأفة والجلم والصفح على من يُعارضه، فكان ذلك سبب زوال مُلكه. إنَّ أهم ما يستوقف الباحث الدارس لسيرة مبارك بن الحسين هي علاقته مع شرفاء تافيلالت، التي قامت على السلب والقتل تارة، والتنكيل والأسر تارة أخرى، فبعدما بويغ سلطاناً للجهاد بالمنطقة اتضحت معالم تلك العلاقة في التدابير التي دشّن بها سياسته في تدبير أمور الواحة، إذ عمل على تنفيذ سلسلة من عمليات التصفية والحملات التطهيرية ضد الشرفاء، وذوي النفوذ الديني والسياسي بالمنطقة، جاعلاً بذلك أعزّة البلاد أذلّها^(٥٢).

وبالرجوع إلى أهم مصدر أرخ للفترة كتاب "نعت الخطريس..." نجد أن مبارك التوزونيني بالغ في سياسته التعسفية ضد الشرفاء، يقول المهدي الناصري "ثمّ مدّ يده في أهل المخزن الموالي والأشراف، وكلّ من فيه رائحتهم، أو ليس جلدتهم من أهل الإنصاف، فاستصفى أموالهم، وخرّب قصورهم، وحاز أموالهم، ثمّ تسلط على أهل اليسار، فلم يبق لهم على درهم ولا دينار، وكان ما وجد عند آل الرشيد، من الحبوب والتمر والآثام وسلاح الحديد، شيئاً كثيراً يربو على آلاف ويزيد"^(٥٣) هذا وقد أطلق أيدي البرابرة في الناس، فصاروا يقتحمون الدور ويسفكون الدماء وينهبون الأموال ويتقاسمونها معه، بالإضافة إلى انتهاكهم أعراض الناس وإذلالهم، ولم يقف التوزونيني عند هذا الحد بل عمل على حفر حُفرة تُرمى بها جُثث من نفذ فيهم حكم الإعدام^(٥٤). الشيء الذي جعل الشرفاء يفرون من تافيلالت إلى درعة والمناطق المجاورة كلما ساحت لهم الفرصة إلى درجة أنه أصبح أي قصر من قصور درعة إلا وتوجد فيه أسرة يرجع أصلها إلى بعض جهات تافيلالت^(٥٥).

لقد كان التوزونيني يكره العُنُصُر الشرفاوي الذي يرى فيه نداءً عنيداً يُنافسه على السلطة، بحكم انتمائه لآل البيت. لذلك لم يتردد في قتل الشريف مولاي عبد الله بن مولاي الرشيد أخ الخليفة السلطاني مولاي المهدي، الذي وبعدما استأمنه على نفسه وعرضه وماله غدر به وأرسل من قتله وهو في طريق المسجد، كما نفذ عملية سطو على عدة قصور مخزنية وشرفاوية، تمهيداً للتخلص و اجتثاث المجتمع الشرفاوي من الواحة، ومن أمثلة هذه القصور نذكر: قصر أولاد عبد الحليم، مقر إقامة مولاي المهدي، وقصر الفيضة، ثم قصر أبار وقصر مولاي سليمان،

وبعدما استقر أمر المنطقة لمبارك التوزونيني، حاول إيجاد صيغ لتنظيم أمور منطقة تافيلالت فقام بإنشاء فُخْرَن مُصغر، يتكون من مجلس حربيّ للجهاد مُشكّل من القبائل التي أعلنت مساندتها له، كما عين قاضي يصدر الفتوى التي كان محورها الجهاد، هذا وقد أحاط نفسه بحرس خاص من حراطين املوان الذين كلفوا بتنفيذ أوامره وقراراته، وجعل بلقاسم النكادي مُستشاره الأول ورئيس جناحه العسكري.

ثانياً: العلاقات الاجتماعية للتوزونيني والنسيج المحلي

١/٢- حياة مبارك التوزونيني الخاصة

انفرد المختر السوسي بالحديث عن حياة التوزونيني الخاصة مُعتمداً في ذلك على رواية الأهالي المقربين منه، حيث أفاد أنه بعد قبايعة على السلطنة بتافيلالت أكثر من الزيجات وأُسند مُهمة البحث والتنقيب عن النساء الحسنات داخل قُصور تافيلالت وخارجها إلى شخص يُسمى مولاي علي بن المصطفى بن الحنفي المنتهي إلى قصر الجرامنة من الرتب، هذا وتتلخص مهمة هذا "الخطاب" أساساً في استقصاء أخبار الحسنات والعمل على ربط الاتصال بعائلاتهنم بُغية إحصارهن إلى التوزونيني للدخول بهن ويُضبحن ضمن محارمه. لقد وصلت زوجات التوزونيني إلى ثلاث عشرة زوجة بكر^(٥٩)، عمّد على إخفائهن عن أنظار العامة من أهالي المنطقة، بل وحتّى المقربين له لم يكن العديد منهم يعلم بهذا العدد من الزيجات، بالإضافة إلى كل هذا يُضيف عبد الله حمودي أن عدد زوجات التوزونيني وصل إلى أربع عشرة زوجة وكل امرأة طلقها لا يحل لرجل آخر تزوجها "فزيجات السلاطين كما يقول التوزونيني لا يمكن أن يعرفن رجلاً آخرين"^(٥٠).

٢/٢- علاقته مع شرفاء وأعيان تافيلالت

"المُلك شجرة لا تسقى إلا بالدم"، "أوقية من الخوف خير من قنطار محبّة" "الرهبوت خير من الرحمت"^(٥١)، هذه العبارات وغيرها ظل مبارك بن الحسين يُرددها واعتمدها لتأطير علاقته مع كلّ مُعارضيه، خصوصاً الفئات التي تتربّع على رأس الهرم الاجتماعي لمنطقة تافيلالت، من الشرفاء والصلحاء وشيوخ الزوايا والفقهاء، وذلك راجع لمكانة هؤلاء الكبيرة عند عامة الناس، لهذا قرر كَسْر شوكة هؤلاء لكي لا يسقط في نفس سيناريو أحمد الهيبة الذي

المائة ومادون ذلك، و ازدحموا على بابه بالعطايا، حتى لم يبق أحد إلا وقد عزم، ولا مسكين إلا وقد ظلم⁽¹⁰⁾، هذا ومكلمنا سمع عالماً أو صالحاً إلا وجه إليه لُصُوصه لقتله⁽¹¹⁾. وبعد دخوله لتافيلالت قتل "الفقيه العلامة الجهيد القاضي العدل الفهامة، سلالة الأكاير الأختيار، معدن الحكمة والأسرار سيدي عبد الواحد بين القاضي الصالح سيدي الهاشمي الأنصاري"⁽¹²⁾، وبعد ذلك بأيام قلائل جاء دور "الصالح ذي القدر المنيف، مقدم زاوية المولى علي الشريف، ثم غيره من كل صالح مسكين ضعيف"⁽¹³⁾، كما سجن الفقيه باسيدي بن المامون من قصبة سيدي ملوك وأخيه محمد بن المامون، وكان قد حكم عليهما بالإعدام، لكن الحكم لم يُنفذ لاغتياله قبل ذلك من طرف مُساعده النكادي.

٣/٢- علاقتُهُ بالعاقبة

عانت ذوي منيع⁽¹⁴⁾ هي الأخرى من سياسة التوزونيني حيث تُفيد الرواية المحلية بين أهالي المنطقة، أن التوزونيني لما تولى زمام الأمور وأصبح حاكماً لتافيلالت وما جاورها لقب نفسه "بأمير المسلمين" وكانت بعض القبائل تابعة له من عرب وبربر وذوي منيع، وهذه الأخيرة لم تكن على الطاعة المطلوبة، فقام بمُهاجمتها على حين غرة، فأحرق ذيامها وقتل رجالها وسبى صبيانها ونسائها، وبقيت امرأة من الناجين فلما رأت هذا العمل الفظيع وهذه المصيبة النكراء التي أصابت قومها عيرت عن ذلك بأبيات من الزجل فقالت:

هَادِي اعشائش مهْدوْمَة
غَيْر تبتو فيك اللُومَة
ذُلُونِي فَهَادَ الغَابَة كَالغُرَابَة
لَا أُمِي وَلَا بَابَا
أُتْمِنِيْتُ مَن الحَي البَارِي
إُعْطِينِي كَابُوسِ اعشَارِي
وَنُبِينِ عَثْبَارِي
فَمَحْمَدُ بُوَ أَفْذَارِي⁽¹⁵⁾

علاوة على ما سلف، كانت علاقة التوزونيني بفئة الحَرَاتِين⁽¹⁶⁾ طيبة، فقد استغل الوضع المتدني لهذه الفئة وما تتلقاه من تهمة وضطهاد في تافيلالت، لا يزوجون من غير جلدتهم ولا يستشارون ويعيشون خداماً لأسيادهم الشرفاء، فركز على هذه النقطة بالذات وعمل على الرفع من قيمتهم من خلال جعل حرصه الخاص من حَرَاتِين إملوان، وتكليف الحو المختار

وقصر مولاي المستعين، وقصبة مولاي أحمد الذهبي، مروراً بقصر أبو عام، وغيرها من القصور⁽¹⁷⁾. أمام هذه الحملة التي شنها التوزونيني اضطر العديد من شرفاء تافيلالت إلى مُغادرة قصورهم تحت الضغط والطرد في اتجاه فاس ومراكش، في حين أن من لم يُغادر تعرض للتنكيل وطالته يد العُنف والقتل مثل القائد عدس المرغادي والقائد باسيدي من عرب الصباح، هذا وقد عمل على التشهير بالشرفاء أمام الملأ بالباسهم لباس اليهود والطواف بهم في ساحة قَصْرِ الريصاني لجعلهم عِزَّة لكل من سولت له نفسه التعامل مع النصارى أو المخزن، وهو الشيء الذي عوقب به الشريف مولاي هاشم. كما عمد التوزونيني إلى تضييق الخناق وفرض حصار من نوع آخر على الشرفاء، فأمر شرائح المجتمع الفيلالي بعدم التعامل معهم، لا من حيث توفير المبيت أو تزويدهم بالمال أو المؤونة عند رحيلهم من المنطقة ومن خالف الأوامر لحقه العقاب⁽¹⁸⁾.

هذا وقد لخص شاهد عيان سياسة الحديد والنار التي نهجها مبارك بن الحسين التوزونيني ومساعدته بلقاسم النكادي، بقوله: "أزلوا أهل العلام من أعياهم وانتزعوا من أصحاب الكبر كبرياتهم فحربوا إليهم كل من يشرب من نخبهم ويتزي بزيتهم من الرعاع المشقوق الأقدام من فصيلة البهائم والأنعام"⁽¹⁹⁾ لقد أدرك مبارك بن الحسين أن النسب الشريف هو الركيزة الأساسية لإنشاء أي كيان سياسي بالمغرب، لذلك ادعى الشرف وعمل على القضاء على كل شيء يكشف أصله مثل ما فعل بمقربيه وأصحابه وأبناء عُمومته الذين وفدوا عليه في بلاطه، فتبرأ منهم وأمر بقتلهم كما أنه أنكر أبوة والده، والجدير بالذكر كذلك أن مبارك بن الحسين غريب عن المنطقة وليس على علم بأحوالها، ولم يكن يُقدم على ما أقدم عليه اتجاه الشرفاء إلا بإيعاز من أطراف عارفة بتواطن تافيلالت، وفي هذا الصدد تُشير المصادر إلى أحد مُهندسي سياسة التنكيل بالشرفاء العلويين وهو الفقيه امحمد بن الحاج علال البوعامي الفلالي المدعو بابن جماعيه، ناهيك عن كُبراء قُصور السفالات المقربين منه⁽²⁰⁾.

علاوة على الشرفاء لم يسلم الفقهاء وشيوخ الزوايا من عسف سلطان تافيلالت، يقول المهدي الناصري: "ثم تسلط على الطلبة وأئمة المساجد وأهل الزوايا، فوزع عليهم قدراً من المال، في الآلف إلى

الهوامش:

- (١) عبد القادر بوراس، "مقاومة أهالي تافيلالت والإسطوغرافية الاستعمارية (١٩١٤-١٩٣٤)", مجلة دار النيابة، ص ٣٩.
- (٢) عبد الله حمودي، "المهدوية كإيديولوجيا سياسية بالمغرب"، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، العدد الثالث، السنة الأولى يونيو ١٩٨٠، ص ٢٦٣.
- (٣) المختار السوسي، المعسول، مطبعة فضالة، الدار البيضاء ١٩٦١م، ٢٠ جزء، ج ١٦، ص ٢٦٣.
- (٤) نفسه.
- (٥) عبد القادر بوراس، مادة "التوزونيني"، معلمة المغرب، العدد ٨، ص ٢٦٣.
- (٦) جورج سبيلمان، آيت عطا الصّحراء وتهدئة افلان-درا، ترجمة محمد بوكبوط، مطبعة المعارف الجديد، الرباط، ص ٨٢.
- (٧) عبد الله ستيتيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر، منشورات المنحوية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠١٣، ص ٢٩٥.
- (٨) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٣.
- (٩) نفسه.
- (١٠) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٤.
- (١١) عبد الله حمودي، م س، ص ٥٧.
- (١٢) عبد الله ستيتيتو، م س، ص ٢٩٦.
- (١٣) عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، مطبعة شركة ناس للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦، ج ٧، ص ٤٤.
- (١٤) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٤.
- (١٥) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٤.
- (١٦) نفسه.
- (١٧) عبد الله ستيتيتو، م س، ص ٢٩٧.
- (١٨) المختار السوسي، اليغ قديما وحديثا، تعليق محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية ١٣٦٦-١٩٦٦، ص ٣٠٦.
- (١٩) نفسه، ص ٣٠٦.
- (٢٠) عبد الله حمودي، م س، ص ٥٧.
- (٢١) نفسه ٢٦٥.
- (٢٢) نفسه ص ٢٦٥.
- (٢٣) عبد الكريم الفيلاي، م س، ص ٤١٥.
- (٢٤) عبد الله ستيتيتو، م س، ص ٢٩٩.
- (٢٥) عبد الكريم الفلالي، م س، ص ٤١٦.
- (٢٦) المهدي الناصري، نعت الغطريس الفسيس هيان بن بيان المنتمي إلى سوس، حقه وقدم له خالد ناصر الدين وتقدم به لنيل شهادة الدكتوراه في تخصص أدب مغربي، بكلية الآداب جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، موسم ٢٠٠٠_٢٠٠١، ص ٨٧.
- (٢٧) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٦.

بعملية اغتيال الحاكم الفرنسي أوستري، الذي عند وفاته أمر بدفنه بخلوة مولاي علي الشريف تعظيماً لقدره وقدر الخراطيين الأمر الذي جعلهم يتخاشون إليه ويُنَاصِرُونه.

وفي ذات المساق تعرض المجتمع الفيلاي لعنف آخر غير مباشر من مبارك التوزونيني، وتجلّى ذلك في الضرائب غير الشرعية التي أثقل كاهلهم بها، حيث ألزم كل دارٍ سواء أكان في مقدورها أولاً أن تُقدم قدرًا من التمّر والخبز لجنوده على كثرة عددهم^(٢٧)، بالإضافة إلى أنه عمّل على أسر كل شخص عرف أنه يمتلك ثروة بإنزاله في المتطورة (سجن تحت الأرض) ويفرض على أهله أداء ديةٍ مُقابل إطلاقه والعفو عنه.

خاتمة

قصارى القول، ومن خلال تتبع سيرة مبارك التوزونيني يظهر بشكل جلي قدى قوة وإصرار هذا الأخير على تحقيق حلمه السياسي، فبعدما استطاع توجيه سلسلة من الضربات للترسانة العسكرية الفرنسية، استتب له أمر تافيلالت وطرد الفرنسيين منها، فتويع على إثر ذلك سلطاناً للجهاد بالمنطقة، ليقوم بعدها بعمليات قتل وتنكيل وتشهير وتهجير ونفي في حق العديد من شرائح المجتمع الفيلاي، وقد ارتبطت بعض تلك العمليات بمحاربة المتواطئين مع الاستعمار، لكن في الغالب كانت تُنظم لأهداف السبي والسلب والنهب، وهذا ما تؤكده الذاكرة المحلية حتى اليوم، الأمر الذي جعل الأهالي يتذمرون. فبعدما خرجوا من استعمار فرنسي كان أرحم نوعاً ما دخلوا في سيطرة حديدية كانت أشد من بطش الاستعمار نفسه.

ويمكن تفسير سياسته العنيفة هذه، في تدبير أمور الواحة إلى البنية العلائقية القديمة التي كانت تربط مجتمع تافيلالت، المكون أساساً من سكان القصور المستقرين والقائم اقتصادهم على الفلاحة ومزاولة بعض الحرف، وقبائل الرحل الأمازيغية التي يقوم اقتصادها على الرعي والنهب والإغارة على مناطق الاستقرار السكاني في تافيلالت. وهذه البنية من العلاقات استمرت لعهد مبارك بن الحسين التوزونيني، الذي لم يستطع وضع حد لها بل حاول استثمارها لدعم وجوده السياسي في الواحة.

- (٤٩) المختار السوسي، **المعسول**، م، س، ص ٣٠٩.
- (٥٠) عبد الله حمودي، م، س، ص ٦٠.
- (٥١) أحمد البوزيدي، "الروابط الفكرية والعلائق الثقافية بين درعة وتافيلالت إلى عهد مولاي يوسف (١٩١٢-١٩٢٧)"، **جامعة مولاي علي الشريف**، دورة التاسعة عشر، الثقافة والفكر في عهد السلطان مولاي يوسف، ج ١، ١٢-١٣، يناير ٢٠٠٨.
- (٥٢) محمد بوكبوت، "الواقع الاجتماعي لحركة المقاومة (١٩١٨-١٩٣٢)"، **جامعة مولاي علي الشريف**، الدورة الثالثة عشر، السلطة والمجتمع في عهد السلطان مولاي يوسف، ١١-١٢ نونبر ٢٠٠٥، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ص ١٠٩.
- (٥٣) المهدي الناصري، م، س، ص ١٦٩.
- (٥٤) نفسه، ص: ١٦٩.
- (٥٥) أحمد البوزيدي، م، س، ص ٢٢٨.
- (٥٦) عبد الله ستيتيتو، م، س، ص ٣٢٨.
- (٥٧) نفسه.
- (٥٨) محمد بوكبوت، "المخزن والزعامات المحلية بتافيلالت قبل الاحتلال الفرنسي، الثوابت والرهانات"، مقال ضمن كتاب: **السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة تصورات ومنجزات، رقم ١٦٤، ص ١٥٦.
- (٥٩) محمد بوكبوت، **مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار (١٨٨٠-١٩٣٨) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط ١، ٢٠٠٥، ص ١١٠.
- (٦٠) المهدي الناصري، م، س، ص ١٦٩.
- (٦١) المختار السوسي، م، س، ص ٢٨٣.
- (٦٢) المهدي الناصري، م، س، ص ٣١.
- (٦٣) نفسه، ص ٣٢.
- (٦٤) إحدى القبائل البربرية.
- (٦٥) رواية شفهية مكّنتني منها الأستاذ عبد الواحد العمري أستاذ العلوم الفيزيائية بإعدادية بأرنززان بمدينة الريصاني المغرب. تصور القصيدة التي نسجت بالدارجة المغربية، واقع الخراب الذي خلفه هجوم جيوش المقاومة على عائلة الضحية، إذ حُرّب منزلها وقُتل أبوها وأمها (خلأوني فيهاد الغابة كي الغرابة لا أمي ولا بابا)، وفي آخر القصيدة أعلنت عن رغبتها في الانتقام وأخذ الثأر من سلطان تافيلالت التوزونيني ومعاونيه.
- (٦٦) هذه الفئة تأتي في أسفل الهرم الاجتماعي لسكان تافيلالت، حيث أنها ترتبط بالأرض وحرثها أو العبودية والخدمة بمنازل الشرفاء والأعيان.
- (٦٧) عبد الكريم الفيلاي، م، س، ص ٤٣٥.

- (٢٨) عبد القادر بوراس، **ملاح عن مقاومة زيد أوسكوتني من سنة ١٩٠٧م إلى ١٩٣٣م**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط ٢، ص ١٥.
- (٢٩) عبد الله ستيتيتو، م، س، ص ٣٠٠.
- (٣٠) عبد القادر بوراس، **ملاح عن مقاومة زيد أوسكوتني... م**، ص ١٦.
- (٣١) نفسه.
- (٣٢) عبد القادر بوراس، "مقاومة أهالي تافيلالت والاسطوغرافيا الاستعمارية (١٩١٤-١٩٣٤)"، **مجلة دار النيابة**، ص ٤٠.
- (٣٣) المختار السوسي، م، س، ص ٢٦٥.
- (٣٤) عبد القادر بوراس، "التوزونيني"، **معلمة المغرب**، الجزء الثامن، ص ٢٦٣٥-٢٦٣٣.
- (٣٥) تافيلالت منطقة توجد في الجنوب الشرقي للمغرب، وهي بالمحاذاة من موقع مدينة سجماسة التاريخية. والمقصود هنا تافيلالت بالمعنى الضيق أي مدينة الريصاني حاليًا.
- (٣٦) عبد الله، **استيتيتو، دور تافيلالت ... م، س، ص ٢٨٣**.
- (٣٧) علوي علي، **مقاومة الغزو الفرنسي بمنطقة تافيلالت (أواخر القرن ١٩-١٩٣٢م)**، بحث لنيل الماستر تحت إشراف محمد بوكبوت، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، موسم ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٤٤.
- (٣٨) قصر تيغمرت من القصور المخزنية مساحته صغيرة نسبيًا، يوجد عالي مقربة ١٥ متر من الضريح القديم لمولاي علي الشريف، وهو الآن عبارة عن كومة تراب بعدما دمره الفرنسيون سنة ١٩١٨.
- (39) Louis Voinot, **Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc**, Rabat, 1939, p. 250.
- (٤٠) محمد العلوي الهاشمي، "مقاومة الاستعمار في تافيلالت"، **مجلة الإحياء**، المجلد الخامس، الجزء الثاني محرم جمادي الثانية ١٤٠٦/ نونبر-أبريل، ص ٣٠.
- (٤١) المهدي الناصري، م، س، ص ١٠٨.
- (٤٢) للاطلاع على تفاصيل العملية يُنظر المختار السوسي، الجزء السادس عشر من المعسول الصفحة ٢٦٧.
- (43) Louis Voinot, op.cit, p.250.
- (٤٤) عبد الله ستيتيتو، م، س، ص ٣٢٥.
- (٤٥) عيسى العربي، **مقاومة سكان أزيلال للاحتلال الفرنسي في مرحلة غزو المغرب ١٩١٢ - ١٩٣٣**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط ١، ٢٠٠٨، ج ٢، ص ٦٩٣.
- (٤٦) للاطلاع على تفاصيل المعركة، يُنظر: محمد بوكبوت، "معركة البطاط كاوز ١٩٨: المعركة المنسية"، **مجلة الذكرة الوطنية**، ندوة الأدب والمقاومة، العدد ٢٠، ٢٠١٢.
- (47) Louis Voinot, op. cit, p. 252.
- (٤٨) المختار السوسي، المعسول، م، س، ص ٣١٤.